مدلولات الألفاظ الواردة في معنى طرفي النهار وتنوعها بين النقل والعقل وتخصيصها بالذكر

المدرس المساعد
محمد سلمان داود
جامعة الانبار- كلية الاداب

الخبير اللغوي
أم.د. خيري جبير لباس

مقدمة

الحمد لله

فما من شك في أن معرفة مواضع ودلالات الألفاظ في سياقاتها ، وبخاصة ما اشتجر القوم فيه واشتد الخلاف على دلالته .. يتوقف أولا على تحرير معاني تأتيك الألفاظ في معجمات العربية ، كما أن تدبر مواقع لفظة ما ، بغية الوقوف على دلالتها ومدى أثرها في الذكر الحكيم ، هو من النصيحة لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وتدعونا هذه التوطئة لأن أقرر أن الحديث سر مجيء النظم الكريم معبرا فيه عن الطرف الأول للنهار بـ (الغدو) تارة ، وبـ (قبل طلوع الشمس) أخرى ، وبـ (الإبكار) ثالثة ، وبـ (الإشراق) رابعة ، ومجيئه معبراً فيه عن الطرف الثاني بـ (العشي) تارة ، وبـ (قبل الغروب) أخرى ، بـ (الآصال) ثالثة .. وكذا الحديث عن مقابلة (العشي) بـ (الإبكار) تارة وبـ (الغداة) أخرى وبـ (الإشراق) ثالثة ، ومقابلة (البكرة) ببعض ما ذكر تارة وبـ (الأصيل) أخرى .. وكذا مجيء تلك المفردات معرّفة في بعض الأحيان ومنكرة في بعضها الآخر إلى غير ذلك .. لهو مما يستدعي بل يوجب الوقوف على أسباب هذا التنوع وعن أسرار مجيئه على الصورة التي ورد عليها ، ذلك أن الألفاظ في هذا وما جاء على شاكلته (تختلف وما تراها إلا متفقة وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة وتذهب في طبقات البيان وتنتقل في منازل البلاغة ، وأنت لا تعرف منها إلا روحا تداخلك بالطرب وتشرب قلبك الروعة وتنتزع من نفسك حس الاختلاف الذي طالما تدبرت به سائر الكلام وتصفحت به على البلغاء في ألوان خطابهم وأساليب كلامهم وطبقات نظامهم مما يعلو ويسفل أو يستمر وينتقص أو يأتلف ويختلف ...فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه ، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وان اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام)[1].

وقد كان دافعي لخوض غمار هذا البحث مع الرغبة في استجلاء أسرار التنوع فيما ذكرت ، واستكناه الحكمة من وراء اصطفاء هذين الوقتين وإفرادهما – دون سواهما – بالذكر ... ندرة بل لا أبالغ إن قلت انعدام تخصيصه – فيما أعلم – بدراسة مستقلة تكشف عن هذا الكم غير القليل من المترادفات والمتقابلات ، ومن

عجيب ما لاحظت ان الدراسات التي عنيت بالبحث عن مثل هذا ، وحتى التي تناول مصنفوها ما اشتبه من النظم ، وأفردوا لأجله العديد من الكتب والمجلدات من نحو ما فعله الإسكافي في كتابه (درة التنزيل وغرة التأويل) ، والدامغاني في كتابه (الوجوه والنظائر) والغرناطي في كتابه (ملاك التأويل)، لم تعرض هي الأخرى من ذلك ، الأمر الذي دعاني للاعتماد كلية بعد الله أولاً ، على ما كتبه أهل التأويل على الرغم من تحفظي على كثير مما ذكروه في هذا الصدد .

هذا وقد اقتضى الحديث عن طرفي النهار في النسق الكريم وعن طرائق التعبير عنهما وسر تنوعها ، أن تأتي تلك الدراسة في ثلاثة مباحث تناول أولها مدلولات هذه الألفاظ وأسباب تنوعها وتخصيصها بالذكر دون سائر الأوقات الأخرى ، وجاء ثانيها متحدثا عما خص به هذان الوقتان من أمر التسبيح وما إذا كان المعنى فيه محمولا على ظاهره المعروف في اصطلاح التخاطب من التنزيه ومن قول (سبحان الله) أم غير ذلك من معانيه المستعمل فيها على جهة المجاز ، كما تطرق المبحث الثالث للحديث عن المقامات التي ورد فيها التعبير عن طرفي النهار وكيف جاء كل منها متناغما مع ما ناسبه من هذه المتقابلات ، ومع ما تلاءم وكان منه بسبب من تعريف أو تنكير ومن تقديم أو تأخير .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

المبحث الأول

سر تنوعها بين النقل والعقل وتخصيصها بالذكر

مما تجدر الإشارة إليه أنه لا غناء عند تناول أي من الموضوعات التي تتنوع طرق الحديث عنه ، من الوقوف أولا على معاني المفردات المعبرة عنه ، وبخاصة عندما يتم التقابل بين بعضها البعض ، إذاً بغير الوقوف على دلالة هذه

المتقابلات ، بل على دلالة كل مفردة مما احتوته واشتملت عليه لا يتسنى بحال استكناه ما بسياقاتها، ولا بحث ما بأسرار تنوعها وبلاغة مواقعها .

والحق ان المفردات التي عبر بها عن طرفي النهار وقوبلت بأضدادها تمثل في موضوعنا هذا لآلئ متقابلة ، نثرت حباتها المتطابقة في النسق الكريم هنا وهناك ، في نظام بديع هو غاية في الدقة والإحكام .

تحرير القول في معنى ما ورد في طرفي النهار :

ولتكن البداية تتبعا لمعاني أكثر هذه الألفاظ ورودا في النظم القرآني ، وهي كلمة (العشي).. فقد وردت هذه الكلمة المراد بها آخر النهار في مقابلة أوله تسع مرات ، أربعا منها قوبلت بـ(الإبكار) وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [2] ، وقوله: ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [4] ، وقوله: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [5] ، وثلاثا قوبلت فيها بلفظة (الغدو) وهي قوله:﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [6] ، وقوله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾[7] وقوله :﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾[8] كما قوبلت مرة بـ (الإشراق) وذلك في قوله: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [9] ، وأخرى بالإظهار وذلك في قوله:﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [10] وقدمت كلمة (العشي) في هذه المرات التسع أربع مرات ، وتأخرت عن أضدادها في الخمس المتبقية .

والعشي في أصله من العَشَا وهو سوء البصر من الليل والنهار من غير عمى ، ويكون في الناس والدواب والإبل والطير[11] يقال:(ركب فلان عُشوةً) : إذا باشر أمرا على غير بيان[12]ومن أمثالهم السائرة :(هو يخبط خبط عشواء) ، يضرب مثلا للسادر الذي يركب رأسه ، ولا يهتم لعاقبته ، كالناقة العشواء التي لا تبصر فهي تخبط بيدها كل ما مرت به ، وشبه زهير في قوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تُخْطِيءْ يعمر فيهرم[13]

شبه المنايا التي مثلت في صورة شاخصة للعيان وهي تطيح بكل ما اعترض طريقها فتأخذه دون ما مسألة ودون ما استثناء ، بالجمل الذي يخبط خبط عشواء .. وتتعدى تلك المفردة بنفسها فيقال : عشوته أي قصدته ليلاً ، وتعدى بـ (إلى) كما في قولهم (عشا إلى النار وعشاها) إذا أتى ناراً للضيافة واستدل عليها ببصر ضعيف ،(عشا الرجل الى أهله يعشو) إذا علم مكان أهله فقصد إليهم أول الليل ، كما تعدى بـ (عن) إن صدر عنه إلى غيره كما في قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[14] ، قال الفراء : معناه من يعرض عن ذكر الرحمن . قال : ومن قرأ (يعش عن ذكر الرحمن) فمعناه من يعم عنه ، وقيل أي يظلم بصره [15] .

فالمادة على ما هو متضح تدور حول ضعف الرؤية وقصر النظر في البصر أو في البصيرة ، ومن ثم أطلقت على ما يتحقق فيه ذلك في الحال أو الزمان ، فإذا زالت الشمس فتحول الظل شرقياُ وتحولت الشمس غربية دعي ذلك الوقت (العشي) ، كذا قال أبو الهيثم فيما نقله عنه صاحب اللسان أيضاً : (يقع العشي على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها ، فإذا غابت فهو العشاء)[16].

وهذا فيما أرى وأدق مما ساقه صاحب اللسان وصاحب بصائر ذوي التمييز بأسلوب التضعيف[17] ، بل وساقه الأصفهاني بدونه من انه (من زوال الشمس إلى الصباح) [18] ، حيث افرده الأخير بالذكر في الدلالة على هذا المعنى ولم يذكره غيره .. فأن ذلك يرد عليه ما أفاده سياق الآيات التي جاءت فيها هذه المفردة مع ما قابلها ، حيث وقع التسبيح فيهما عطفا على الذكر المطلق كما في نحو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [19] والعطف . على ما هو معلوم . يقتضي المغايرة وعليه فالمعنى – والله تعالى اعلم بمراده . اذكروا الله أيها المؤمنون في كل وقت وخصوا هذين الوقتين بما هو أدل على كمال نعمته ودلائل قدرته وعجيب صنعه بتنزيهه تعالى وتسبيحه .

كما يرد عليه الآية الكريمة :﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ [20] إذ وقوع الآصال الذي يفيده في مقابلة ما يقابله غالباً وهو (الغدو) يشير إلى تعيين المراد من العشي ، ويوجب أن يكون المراد به ما قبل غروب الشمس لأن ظلال الأشياء لا تحدث . كما هو المتعالم لدى الخاصة والعامة. إلا ما بين طلوع الشمس وبين غروبها .. ويرد عليه كذلك قوله تعالى:﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ ..﴾ [21] ، لأن ((الإقامة : وهي إيقاع العمل على ما يستحقه تقتضي أن يكون المراد بالصلاة هنا الصلاة المفروضة ، فالطرفان ظرفان لإقامة الصلاة المفروضة ، فعلم أن المأمور إيقاع صلاة في أول النهار وهي الصبح ، وصلاة في آخره وهي العصر ويكون ذلك هو المراد من الغداة والعشي الذي كثر ورودهما في آي التنزيل وفي السنة المطهرة .. والزلف جمع زلفة ، وهي الساعة القريبة من أختها وهذا أيضاً يعلم منه ان المأمور به إيقاع الصلاة في طائفة من الليل الذي يبدأ من صلاة المغرب وهي . بالطبع . غير الصلاة التي في طرفي النهار..))[22]، وفي بصائر ذوي التمييز : ((قوله : " وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ " أي الغداة والعشي)) [23] ، وفيه: ((قوله تعالى " طَرَفَيِ النَّهَارِ " أي الفجر والعصر)) [24] روي ذلك عن الحسن وقتادة والضحاك ونص عليه الزمخشري والبيضاوي [25] ، ((واستظهره أبو حيان بناء على إن طرف الشيء يقتضي أن يكون من الشيء ، والتزم أن أول النهار من الفجر)) [26] ، وعليه فقد ((وجب – على حد قول الرازي – حمل الطرف الثاني على صلاة العصر)) [27] ، فيكون المراد به العشي ، إذ ليس قبل غروب الشمس سواه .

وأصرح من ذلك في دلالة (الطرف الثاني) على (العشي) المأمور فيه بالتسبيح ، قوله تعالى في ذات الأمر ، وفي إطلاقه على نفس الوقت ، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [28]، وقوله في سياق مماثل : ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [29] إذ ليس قبل الغروب . لتأدية ما صدر الأمر به في العشي من تسبيح . خلا العصر ، وعليه فإنه لا يجوز أن يكون المراد من

(العشي) صلاة المغرب ، على ما هو المختار لدى الطبري وغيره والمروي عن أبن عباس، لان ما ذكروه يعكر صفوة الأدلة التي سقناها ، وكونها داخلةً تحت قوله تعالى : (وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ) [30] اللهم إلا على سبيل الحمل على المجاز فأنه يسوغ حينذاك ، (لان ما يقرب من الشيء يجوز أن يطلق عليه اسمه) [31] ولعل الذي حداً بمن ذهب إلى هذا لأن يقول به ، ويجعله احد قولين مشهورين في معنى التسبيح بالغدو والآصال كما سيأتي بيانه ، تعذر العمل بظاهر هذه الآية لإجماع الأمة على إن إقامة الصلاة في ذلك الوقت غير مشروعة فتعين من ثم تفسير الطرف الثاني بصلاة المغرب .. وجوابه أن هذا التعيين محمول على المجاز وذلك لا يمنع من أن يكون مراده على الحقيقة هو العصر ، وعليه (فإن كان النهار في أول الفجر إلى غروب الشمس فالمغرب (طرف) ، مجازا وهو حقيقة طرف الليل وإن كان من طلوع الشمس إلى غروبها فالصبح كالمغرب طرف مجازي) [32] والحقيقة فيه هو ركعتا الضحى ، يعضد هذا قوله سبحانه في حق داود عليه السلام ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [33] ، وكذا ما ورد من الآثار ومن أدلة السنة المطهرة مما يفيد أن الإشراق مراد به صلاة الضحى .

والأصيل هو منى في ذكر ، يقول الزمخشري : (الآصال جمع أصل وهي العشي) [34] وإن كان من فرق بينهما فيكمن في أنه يتوسع في العشي بما لا يتوسع في الأصيل ، وفي اللسان : (الأصيل : العشي .. والأصيل : الوقت بعد العصر إلى المغرب) [35] والجمع أصل وأصلان .. قال الزجاج : آصال جمع أصل فهو على هذا جمع الجمع [36] ، وإنما سمي كذلك لالتصاقه واتصاله بما هو الأصل لليوم التالي وأوله .. وقالوا في تصغير الأصيل أصيلان وأصيلال على البدل ، أبدلوا من النون لاما ، ومنه قول النابغة :

وقفت فيها أصيلالا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد [37]

ومحصلة ما ذكر أن وقت (العشي) و (الأصيل) هو ما بعد صلاة العصر إلى ما قبيل غروب الشمس وتلك هي حقيقتيهما على ما تقضي به لغة

العرب وتفيده سياقات الآيات الوارد فيها ذان اللفظان .. وإذا ما أطلقا – ولاسيما الأخير منهما – على ما بعيد غروب الشمس وهو ما يوافق صلاة المغرب فإنه يكون على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المجاورة ، وقد بهما عن استغراق الشطر الثاني للنهار إذا اقتضاه المقام وأومأ إليه السياق [38] .

وابتناء على ما سبق ذكره يكون وقت الغداة والإبكار والمراد منهما حقيقة : الطرف الأول من النهار ، وهو ما يكون من النهار من أول الفجر إلى ما قبيل طلوع الشمس إذ هو المقابل للطرف الثاني منه ، ويطلق على ما بعيد ذلك على سبيل المجاز لعلاقة المجاورة أيضا وقد يكنى بهما كذلك عن الاستغراق لجميع أجزاء الشطر الأول من النهار إذا اقتضى المقام ذلك وأملاه السياق .. يقول ابن منظور : (الغدوة بالضم : البكرة ، وهو ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس .. والغداة كالغدوة وجمعها غدوات .. وقال الليث : الغدوة جمع مثل الغدوات والغدى جمع غدوة .. وأنشد (بالغدى والأصائل) وقالوا : إني لآتيه بالغدايا والعشايا ، والغداة لا تجمع على الغدايا ولكنهم كسروه على ذلك – أي جمعوه جمع تكسير – ليطابقوا بين لفظه ولفظ العشايا وليزاوجوا بينهما أفردوه لم يكسروه .. ويستعمل مصدرا ، يقال : غدا عليه غدوة وغدوّا ، واغتدى : بكر ، والاغتداء : الغدو ، وغاداه باكره وغدا عليه .. وقوله تعالى:﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي : بالغدوات [39] ، فعبر بالفعل عن الوقت – إذ الأصل فيه : يغدون بالتسبيح أول النهار أي بعيد طلوع الفجر – كما يقال : أتيتك طلوع الشمس أي وقت طلوع الشمس ، ويقال : غدا الرجل يغدو فهو غاد ، وفي الحديث : (لغدوة أو روحة في سبيل الله ...) ، والغدوة : المرة من الغدوّ وهو سير أول النهار ، نقيض الرواح) [40] .

ويكشف – رحمه الله – في كتابه لسان العرب عن معنى البكرة مفصحا عن مرادفتها لصاحبتها فيقول : إنها تعني (الغداة .. والبكور والتبكير : الخروج في ذلك الوقت ، والإبكار: الدخول فيه ، قال سيبويه : لا يستعمل إلا ظرفا ، والإبكار كالإصباح هذا قول أهل اللغة ، وعندي – والكلام لا يزال لابن منظور – أنه مصدر أبكر [41] ، وبكر على الشيء وإليه يبكر بكورا وبكر تبكيرا وابتكر وأبكر باكره : أتاه بكرة .. وكل من بادر إلى شيء فقد أبكر عليه ، وبكر أي وقت كان، يقال: بكروا

بصلاة المغرب أي صلوها عند سقوط القرص، وقوله تعالى :﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ جعل الإبكار وهو فعل ، يدل على الوقت وهو البكرة – يريد أنه كسابقه ، الأصل فيه : يبكرون بالتسبيح أول النهار أي بعيد طلوع الفجر – والباكور من كل شيء المعجل المجيء والإدراك وبكر كل شيء أوله) [42] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [43] يعني أول النهار وباكره [44] .

فالمادة على هذا تدور حول معنى الإسراع والمبادرة والمعاجلة في أول الوقت وهي إن نُونت صارت ظرفا أو مصدرا ، وأريد بها وقت الغدوة ، وفي معنى هذا يقول الراغب : (أصل الكلمة هي البكرة التي هي أول النهار فاشتق من لفظه لفظ الفعل فقيل : بكر فلان بكورا إذا خرج بكرة ، وتصور منها معنى التعجيل لتقدمها على سائر أوقات النهار) [45] .

وإن كان من فرق بين كلمة (بكرة) التي اتضح من خلال كلام أهل اللغة أن وقتها هو ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس .. وما زاد فهذا مما وقع في مقابل العشي لكن بلفظ (الإشراق) هو أن الإشراق يكون عند من التزم جعل أول النهار من طلوع الشمس إذ هو حقيقة فيه ، ولذا قالوا في تفسير قول الله تعالى في حق داود عليه السلام : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾[46] .

حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفو شعاعها ، يقال (شرقت الشمس شروقا: طلعت، وأشرقت : أضاءت)[47] و(أشرق القوم : دخلوا على وقت الشروق)[48]، و (أشرق الرجل : أي دخل في شروق الشمس ، وفي التنزيل : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ [49] أي مصبحين ، ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [50] أي لحقوهم وقت دخولهم في شروق الشمس وهو طلوعها) [51] .

مدلولات الغداة والعشي وما في معناهما بين الحقيقة والمجاز :

والذي ينعم النظر في تتبع مقولات أهل التأويل من المفسرين والمشغولين والمشتغلين بالدراسات القرآنية في معنى ما جاء في طرفي النهار يلحظ أنهم لا

يقصرون مدلولي الغداة والعشي على وقتيهما المعلومين والمخصصين لهما عند أهل اللغة على جهة الحقيقة – أيٌّ من الفجر إلى طلوع الشمس ومن العصر إلى انتهاء النهار ، بل إنهم يتوسعون فيهما ليمتدا لديهم وليشملا سائر ساعات الليل والنهار ، وما ذلك إلا حملَ لمعنى الأمر بالتسبيح بالغداة والعشي على معنى المداومة وفقاً لمدلولات النصوص وسياقات الآيات المومأ إلى ذلك .

ولنتأمل في ذلك مثلا ما ذكره صاحب الكشاف تفسيرا لقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [52] وقد تبعه فيه غيره يقول : (أراد دوام الرزق ودروره كما تقول : ألا عند فلان صباحا ومساء وبكرة وعشيا ، تريد الديمومة ولا تقصد الوقتين المعلومين) [53] وما ذكره الطاهر بن عاشور في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [54] حيث يقول : (الغداة أول النهار والعشي من الزوال إلى الصباح ، والباء للظرفية .. والمعنى أنهم يدعون الله اليوم كله ، فالغداة والعشي قصد بهما استيعاب الزمان والأيام كما يقصد بالمشرق والمغرب ، وكما يقال : الحمد لله بكرة وأصيلا) [55] وفي معناه يقول الآلوسي تفسيرا لنفس الآية : (والمراد بهما هاهنا الدوام كما يقال فعله مساء وصباحا إذا داوم عليه) [56] وعلى هذا دأب جل المفسرين وربما كان مستندهم في هذا صحة ما ورد عن العرب (إني لآتيه بالعشايا والغدايا) [57] يقصدون بذلك استدامة المجيء .

والحق ان الأمر في هذا لا يعدو أن يكون كناية عن المداومة في فعل المجيء وفي استدامة الدعاء وفي عدم انقطاع الرزق عن أهل الجنة ، ولا يعني بحال أن يخرج اللفظان عن حقيقتهما الموضوعة لهما في اصطلاح التخاطب ، إذ ليس من المعقول أن يظل هؤلاء المتحدث عنهم في آية الأنعام على حال واحدة لا يحيدون عنه ولا يميدون ، كما لا يعقل أن يبقى أهل الجنة الوارد ذكرهم في آية مريم يطعمون ويشربون مدة خلودهم الأبدي وبقائهم السرمدي ، لأن ذلك – مما لا شك فيه – مما يبعث على الملل ومما يتنافى مع خلق التوسط والزهادة اللذين تربوا عليهما في الدنيا ، كما ان فيه مشغلة كذلك عن التمتع بسائر ألوان النعيم الأخرى

التي أعدها الله لعباده الصالحين من نحو التسري بالحور العين والتقابل على السرر والأرائك والورود على الحوض ومصاحبة الأخلاء من المتقين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، بل وفوق كل ذلك وأعلاه السعي لنيل رضا الله سبحانه والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم كما في قوله ﷺ عن رب العزة سبحانه من أنه (يقول لأهل الجنّة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير بين يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا) [58] ، وقوله فيما رواه مسلم : (إذا دخل أهل الجنة الجنّة وأهل النار النّار نادى منادٍ يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو الله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم).

وقد استشعر البيضاوي كل هذه المعاني فراح يمرض حمل المعنى على الديمومة ويتورك على القائلين به ، ويقدم عليه ما يفيد الحمل على الحقيقة ، يقول قوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [59] : (على عادة المتنعمين والتوسط بين الزهادة والرغابة [60] ، وقيل المراد دوام الرزق ودروره) [61] .

والعجيب أن يستنكر ابن منظور على من يذهب إلى إطلاق (العشاء) على فترة ما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر ولا ينكر بنفس القدر على من ذهب إلى أن العشاء : من زوال الشمس إلى الصباح ، مكتفيا في ذلك بلفظ التضعيف ، غذ يقول : (وقيل العشي من زوال الشمس إلى الصباح ويقال لما بين المغرب والعتمة : عشاء ، وزعم قوم أنه من زوال الشمس إلى طلوع الفجر وأنشد في ذلك :

غدونا غدوة سحراً بليل عشاء بعد ما انتصف النهار [62]

على الرغم من أن قول الشاعر : (بعد ما انتصف النهار) يفيد اقتراب ما بعد منتصف النهار إلى وقت العشاء ، فيكون الحمل على المجاز لعلاقة المجاورة مستساغا لقرب المسافة الزمنية .. وليس من هذا في شيء القول بأن العشي هو ما يمتد وقته ليتسع ما بين زوال الشمس إلى صباح اليوم التالي .. وأعجب منه أن يورد في ذلك ما أنشده ابن الأعرابي من قوله :

هيفاء عجزاء خريد بالعشي تضحك عن ذي أشر عذب نقي فينفي عنه وضع العشي موضع الليل ، ويلتمس له مخرجا ويعلق عليه بقوله : (فإن أراد بالليل ، فإما أن يكون سمى الليل عشيا لمكان العِشاء الذي هو الظلمة ، وإما أن يكون وضع (العشي) موضع الليل لقربه منه من حيث كان العشي آخر النهار ومتصلاً بأول الليل) [63] ... يقول : (وإنما أراد الشاعر أن يبالغ في بتخردها واستحيائها ، لأن الليل قد يعدم في الرقباء والجلساء وأكثر من يستحيا منه ، فإذا كان ذلك مع عدم هؤلاء فما ظنك بتخردهما نهارا إذا حظروا ؟)[64] وإذا ما اتفقنا على ان لفظ الأصيل هو في معنى العشي كما قرر أهل اللغة وأهل التأويل وعلى ما سبق ذكره ، فإن الزوال وما يقرب منه – على ما قرروا أيضا – لا يسمى أصيلا ، وما قيل أنه من يسمي كذلك ، لو سلم فهو ارتكاب لغير المألوف من غير ضرورة تدعو إليه [65] ، وطرقا للباب على وتيرة واحدة وقياسا على ما سبق نقول : إن إطلاق العشي كذلك ليمتد إلى صباح اليوم التالي هو أيضا ارتكاب لغير المألوف من غير ضرورة تدعو إليه .

ونظير ما مضى – مما يعد مقبولا – في الحمل على المجاز مع ما يفيده من الدلالة على الاستغراق والاستدامة على فعل الشيء في الوقتين المذكورين ، ما ذكره الرازي في تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [66] قال : (الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف ، والعشي عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات) [67] ، وأحسب أن هذا هو الأليق فيما هذا شأنه وفيما يقتضي المقام حمله على معنى الاستغراق في الزمن وفاء بحق السياق ، على اعتبار ان ما يقرب من الشيء

يطلق عليه اسمه ، وقد نحا كثير من المفسرين هذا المنحى مقدمين إياه على القول بمغالطة أهل اللغة والجنوح بالعشي وجعله من زوال الشمس إلى الصباح من هؤلاء صاحب التحرير والتنوير فقد ذهب في تفسيره لنفس الآية التي حمل الزمخشري فيها معنى العشي والإبكار على الاستدامة الشاملة لسائر ساعات اليوم والليلة ، وهي قوله تعالى ك ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [68] ،إلى أن المقصود من (البكرة : النصف الأول من النهار ، و(العشي) النصف الأخير [69] . والجمع بينهما كناية عن استغراق الزمن[70] ، أي لهم رزق غير محصور ولا مقدر بل كلما شاؤوا) [71] .. وإن كان يعاب عليه إنه لم يستمر على هذا المنحى وراح في مواضع أخرى يحمل معنى العشي على ما بين وزال الشمس إلى الصباح على نحو ما فعل في تفسيره لآية الأنعام .

ولا يحتج لهذا أن المقصد من كلامه الذي أورده في تفسير آية الأنعام ، وكذا كلام من حجل بقيده ، التكنية عن الاستدامة ، لأن الجواب عن ذلك ، أنَّ الكناية لا تمنع من إرادة ظاهر اللفظ ، وظاهر اللفظ يصعب حمله – على نحو ما ارتأينا – في آيتي مريم والأنعام على وجه الحقيقة .

على أن هذا المنحى قد يحمد في مثل قوله سبحانه:﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾[72] ، وقوله سبحانه ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ .. على التكنية عن سائر أحواله ﷺ يقظة أو مناما سرا أو إعلانا ليلا أو نهارا لما يدل عليه السياق ويومئ إليه ، والشرط في ذلك ألا يوجد في سياق الكلام ما ينافيه أو يتماشى معه من نحو إطلاق الذكر وتقييد نوع منه بوقتي الغداة والعشي في نحو قوله تعالى:﴿ يا أيها الله الذي آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ [73] ، وكذا ما تعين الحمل على الوقتين لكون الموقوت بزمنيهما مختص بهما لا يتعداهما ، كما في قوله سبحانه : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ..﴾ [74] ، إذا السماوات معلوم بداهة ان الفيء لا يظهر بصورة كاملة تشعر بما يليه النظم الكريم إلا في الوقتين بمعناهما اللغوي، ونظير ذلك ما كان منصوصا على وقتيه ببعض دلائله التي لا ينصرف بها

المعنى إلا إليه ، كما في الآية الكريمة الواردة في حق داود عليه السلام : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن له بالعشي والإشراق ﴾[75] ذلك أن (وقت الإشراق محدود بوقت ارتفاعهما عن الأفق الشرقي وهو ما يسمى بالضحوة الصغرى)[76] وذلك لا يتأتى إلا وقت بدء طلوعها ولا يكون دون ذلك أو سواه بحال .

من أسرار تقديم بعض مسميات طرفي النهار على بعض ووجه تنوعها :

وإذا ما رمنا الإبحار في الكتاب العزيز بغية الوقوف على سر التنوع في التعبير عن الوقتين المنوط بهما هذا البحث ، وأردنا الكشف عن علائق التراكيب التي قدم فيها بعض مسميات هذين الوقتين على البعض الآخر ، وابتغينا الغوص للتعرف على وجوه اختلاف سياقاتها وتناغيها وتواصلها .. فإنه لا بد لنا أولا أن نستجلي الملابسات التي ورد فيها ذكر هذين الوقتين .

والمتأمل للسياقات التي قدم فيها لفظ (العشي) على الإبكار كما في حق زكريا عليه السلام ﴿ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار ﴾ [77] ، وقوله في مخاطبة نبيه محمد ﷺ قبل هجرته إلى مكة : (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [78] يبصر بضميمة ما جاء في قوله سبحانه في حق داود عليه السلام ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن له بالعشي والإشراق ﴾ [79] إن الإبكار يصدق جعله وصفا لأول النهار من بعد طلوع الشمس لا الفجر [80] ، كما يرمق ان في اصطفاء مفردة (الإبكار وفي تقديم (العشي عليها ما يصور حال الأمم السابقة المستضعفة وما كانت عليه من تلبس بالعبادة المفروضة ، وكذا ما كان عليه النبي ﷺ وصحبه الكرام قبل فرض الصلوات الخمس وقبل الجهر بالدعوة والصدع بها .

ونعلم أنه ﷺ قد أمر بأن يقتدي بالأنبياء من قبله وأن يعبد الله بالكيفية التي كانوا يعبدونه سبحانه بها [81] ، وصلاة ركعتين في آخر النهار ومثلهما بأوله هو الأوفق لحال أولئك الأوائل الذين صدقوا بدعوة النبي ﷺ في صدر الإسلام فقد كان معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء وليس بوسعهم مجابهة قوى الكفر

المتعصبة لشركها ووثنيتها ، بل ولا إظهار شعائر الدين الذي آمنت به ، ولقد بلغ الضعف في هذه الثلة المؤمنة التي آمنت بالنبي محمد ﷺ في بداية الأمر إلى حدٍ أنه إذا أراد أحدهم ممارسة عبادة من العبادات التي كلف بها ذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها من عيون قريش .. فمع انشغال أهل الكفر في أول هذين الوقتين بجلب الرزق والسعي على المعاش ، وخلودهم في آخرها للدعة والراحة بعد عناء يوم كامل من العمل يمكن لأولئك المستضعفين أن يمارسوا بشيء من الحرية والبعد عن الضغط والتعرض للأذى ، ما كلفوا به من قبل ربهم وما تعلموه من نبيهم .. والبدء بالعشي أقدر على تصوير هذه الفترة ، وأبلغ في بيان حالتي الإخفاء والهمس اللذين كانوا عليهما أثناء تأدية ما كلفوا به من صلاة ، وترديد ما كان ينزل على نبيهم ﷺ من آي الذكر الحكيم .

ولا يبعد أن يكون حال زكريا عليه السلام مع مناوئيه من اليهود شبيها بحال أولئك الصحب الكرام مع كفار مكة ، فيكون في هذا أيضا الوجه في البدء بالعشي ، بل ان هذا ما ينبئ به طبيعة هؤلاء القوم الذين تخصصوا في الإيذاء ، وفي قتل الأبرياء والأنبياء بغير حق ، ففي تفسير ما أخبر الله به عن قتلهم أنبياء الله ذكر أهل العلم نصوصا تصرح بقتل سيدنا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام على يد أولئك الأنجاس ، ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله في قوله : (ومن تلاعب الشيطان بهم ما كان في شأن زكريا ويحيى عليهما السلام وقتلهم لهما حتى سلط الله عليهم بختنصر وسنحاريب وجنودهما فنالوا منهم ما نالوه [82]، كما حكى عنهم في موضع آخر أنهم (هم قتلة الأنبياء ، قتلوا زكريا وابنه يحيى وخلقا كثيرا من الأنبياء حتى قتلوا في يوم واحد سبعين نبيا في أول النهار وأقاموا سوق بقلهم آخره ، كأنهم لم يصنعوا شيئا [83] . الأمر الذي يعكس مدى الهلع والخوف الذي كان ينتاب أهل الحق في تلك الأزمنة الغابرة ، ويعكس بالتالي سر البدء بالعشي في آية آل عمران .

ومما قيل في سر تقديم (العشي مراعا في السياق ما ذكره البقاعي في حق آية غافر سالفة الذكر من أنه (لما كان المقام لإثبات قيام الساعة [84] وكان العشي أدل عليها قدمة [85] .

وأيا ما كان الأمر فإن السياق في الآيتين المذكورتين يختلف عنه في آية ص وإن كان منه بسبب إذ أن المناسب للبدء بالعشي قبل الإشراق ، هو ما كان عليه داود عليه السلام من أوب إلى وترجيع ، وقد كان يشاركه في ذلك الجبال والطير كما دل عليه قوله تعالى :﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ [86] وقوله :﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [87] ، وقوله: ﴿ والطير محشورة كل له أواب ﴾ [88] وظهور كل ذلك في وقت العشي أبين في تذكير المصير وما سيؤول إليه حال الخلق .

يقول صاحب نظم الدرر (لما كان – أي التسبيح – في سياق الأوبة ، وكان آخر النهار وقت الرجوع لكل ذي إلف مألفه مع إنه وقت للفتور والاستراحة من المتاعب قال (بالعشي)) ، وكان من ثم البدء به(تقوية للعامل وتذكيرا للغافل)[89].

وإنا كان تقديم العشي – فيما هو قريب مما ذكرناه من أمر الإبكار والإشراق – أعني الإظهار في قوله جل وعلا ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد ﴾ [90] ، لنفس ما سبق ذكره في آية غافر حيث الكلام عن القيامة وإثبات الحشر والبعث حتى ليكاد يكون متطابقا معه تمام التطابق ، ومن ثم فملابساتها هي من ملابسات نظيرتها .

وفي مراعاة تقديم ما هو ألصق بالسياق في آية الروم وأدل عليه يقول الفخر الرازي : إنه (قدم الإمساء على الإصباح هاهنا وآخره في قوله تعالى :﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[91] لأن هاهنا أول الكلام ذكر الحشر والإعادة من قوله تعالى :﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فأولئك في العذاب محضرون ﴾ [92] وآخر هذه الآية أيضا – يعني ما جاء عقبها – ذكر الحشر والإعادة بقوله تعالى : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وكذلك تخرجون ﴾ [93]

، والإمساء آخر فذكر الآخر أولا لتذكر الآخرة) [94] وهو في معنى ما ذكره البقاعي في حق آية غافر وفاء بحق السياق . ويريد الرازي بما ذكره ان مقابلة العشي بالظهيرة والإمساء بالإصباح وتقديم ما تقدم في كل ما جاء ملائما للسياق في التذكير بيوم القيامة ، فعلى نحو ما يعقب الركون إلى الدعة والراحة والنوم والسكون في الإمساء والعشي حركة بعد الاستيقاض والانتشار ، يعقب الموت وإعادة إحياء الخلق من جديد ، وإخراجهم من قبورهم ، للحشر واجتماع الناس في يوم لا ريب فيه ، ولما كان الموت الذي يمثل الإمساء والعشي، ويشبهه في ترتيبه الزمني بوقوعه قبل الحشر ، وكان من السياق التذكير بالآخرة قدم من ثم الإمساء والعشي ، ردا على قالتهم السوء بإنكار البعث والحساب من ناحية ، وإقامة للحجة عليهم بنصب الأدلة عليهما بتشبيههما بالاستيقاظ بعد الموتة الصغرى من ناحية أخرى .

وفي البحر المحيط : (قوبل بالعشي الإمساء وبالإظهار الإصباح ، لأن كلا منهما يعقب بما قابله ، فالعشي يعقب الإمساء ، والإصباح يعقب الإظهار) [95] ، وفي معنى ما ذكر يقول الآلوسي (قدم الإمساء على الإصباح لتقدم الليل والظلمة ، وقدم العشي على الإظهار لأنه بالنسبة إلى الإظهار كالإمساء بالنسبة إلى الإصباح) [96] ويعنيان بذلك أنهم في (الاستعمال العربي يعتبرون في الليالي مبدأ عدد الأيام [97] فهو أسبق في حساب أيام الشهر ، وفي التنزيل قال تعالى: ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾ [98] ، [99] وقال أبو السعود بأن تقديم (عشيا) على (حين تظهرون) لمراعاة الفواصل وتغيير الأسلوب [100] ، وليس ما ذكروه بالوجه بل هو – فيما أرى – على ما ذكرت ، مراعاة لمكان النزول . وإن كنت لا أرى فيما ذكره الفخر الرازي – وفاء بحق السياق – باسا ، وفي حصلته يقول الطاهر في عبارة بليغة موجزة : (قدم فعل الإمساء على فعل الإصباح .. لأن الكلام لما وقع عقب ذكر الحشر من قوله : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ [101] وذكر قيام الساعة ، ناسب أن يكون الإمساء وهو آخر اليوم خاطرا في الذهن فقدم لهم ذكره) [102] .

وهنا يجيء حق النظم غاية في التناسق بين مفرداته والتآخي بين جمله ، كما يجيء التقديم والتأخير للأوقات محققا الغرض الذي يهدف إليه سياق النص القرآني ، وتلك – وأيم الله – آية من آيات الأعجاز في كتاب الله .

(وتغيير الأسلوب في (عشيا) لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشي كالمساء والصباح والظهيرة ، ولعل السر في ذلك على ما قيل : انه ليس من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها ، كالأوقات المذكورة ، فإن كلا منها وقت يتغير فيه الأحوال تغيرا ظاهرا ، أما في المساء والصباح فظاهر، وأما في الظهيرة فلأنها وقت يعاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة) [103] فهو وقت عورة كما صرح بذلك في سورة النور .

وفي سر تخصيص الأولين في قوله تعالى : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [104] في آية الروم بالتنزيه ، والأخيرين (عشيا وحين تظهرون) بالتحميد ، يقول البيضاوي : إن (تخصيص التسبيح بالمساء والصباح ، لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أظهر وتخصيص الحمد بالعشي الذي هو آخر النهار .. والظهيرة التي هي وسطه ، لأن تجدد النعم فيهما أكثر) [105] .. وما جاء في الحواشي الشهابية وكذا ما ذكره الآلوسي من أن هذا يرد عليه عطف ظرف الزمان (عشيا) على المكان (في السماوات) وأن هذا وعكسه لا يجوز [106] ، جوابه أنه يمكن جعله معطوفا على مقدر أي (وله الحمد في السماوات والأرض) دائما (وعشيا) على أنه تخصيص بعد تعميم ، والجملة اعتراضية [107] وعليه يكون العطف في (وحين تظهرون) على قوله قبل : (وحين تمسون وحين تصبحون) ويكون التخصيص في الثلاث بالتنزيه وفي العشي بالتحميد .

وعلى نحو ما جاء الترتيب في تقديم العشي في حال الاستضعاف والخوف – أعني على الوجه الذي تراءى لنا – متناغما مع سياق الآيات التي قدمت فيها ومع نظمها .. يجيء الترتيب كذلك في تقديم المقابل للعشي عندما يزال ذلك ويستشعر بدلا عنه معاني الأمن والقوة ، والأمان والكثرة . ولعلك تجد صدى هذا في حديث

القرآن عن أهل الجنة وتحديدا في قوله سبحانه عنه : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ [108] ، وفي حديث عما كان من أمر زكريا عليه السلام عندما ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [109] ، وفي حديثه عن أهل الإيمان بعد أن مكن الله لهم وذلك في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [110] فقد أضحى الذين زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة في مأمن من عناء الدنيا ومن عذاب جهنم ﴿ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۞ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [111] وأضحى زكريا عليه السلام في مأمن عن أعين الرقباء والأعداء ، وفي منعة من قومه الذين (كانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخله ويصلوا)[112] كما تغير حال المؤمنين في المدينة بعد أن تهيئاً لهم المجتمع الآمن المستقر ، وبعد أن أذهب الله عنهم ما كان بهم من ضعف وصاروا ذوي بأس شديد ومنعة ، ويمكن لك أن تستكنه هذه المعاني وتستشعر أنفة العظمة والعزة التي انخلعت على الصحب الكرام ، وأنت تقارن ما جاء في آية الأحزاب بما جاء في قوله سبحانه عنهم:﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس﴾[113] .

الأمر الذي يؤكد أنه حتى عندما يكون أمر تقديم كلمة على كلمة متعلقا بما ذكره العلوي في الطراز تحت باب (ما يجوز تقديمه ولو لم يفسد معناه) [114] فإن بلاغة النظم القرآني تقتضي أن يجيء التناسق والترتيب بين الكلمات تحقيقا للغرض وإنه عندما يتغير الغرض من موضع إلى موضع آخر لا جرم يتغير معه ترتيب النظم . وإلا فـ (لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ، ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي – كما ذكر شيخ البلاغة – أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله الآخر) [115] .

وجه تخصيص طرفي النهار بالذكر دون سواهما :

ولا يعني هذا العنوان بحال أن يقصر التسبيح لله تعالى على الوقتين ويترك فيما عداهما . بل مراده البحث عن سر إفرادهما بالذكر ، وبيان أنهما في ذلك وفي الدلالة على أهميتهما كإفراد التسبيح من بين الأذكار مع اندراجه فيهما لكونه العمدة [116] .

هذا وقد تعددت الأقوال في سر تخصيص وقتي الغداة والعشي بالذكر ليكونا وما في معناهما زمنا لتسبيح الله وتنزيهه دون سائر الأوقات الأخرى . فمن قائل إن الوجه في ذلك :

1. كونهما مشهودين أي يحضرهما ملائكة الليل والنهار يلتقون فيها ويتعاقبون على ابن آدم على نحو ما ورد في حديث أبي هريرة بلفظ (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم . كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون) [117] . ولا وجه لما ذكره الشهاب من ان دلالة الحديث (على ما ذكر محل نظر) [118] على اعتبار ان عروجهم يتنافى مع كون الوقتين مشهورين بحضورهم .. ذلك لأن الحديث نص في الطريقة التي يكونون عليها أثناء حضورهم وشهودهم على بني البشر فضلا عن أنه كذلك نص في الصلاة التي تكون بوقتي الغداة والعشي . إذ ليسا إلا الفجر والعصر كما سبق تقريره ، قال ابن بطال فيما نقله عن ابن حجر (خص هذين الوقتين لاجتماع الملائكة فيهما ورفعهم أعمال العباد لئلا يفوتهم هذا الفضل العظيم) [119] .

2. أنهما مجامع أوقات الصلاة ، يقول الآلوسي فيما نقله عن بعض أهل العلم : (يجوز أن يقال تخصيص هذين الوقتين بالذكر دلّ على اختصاصهما بمزيد شرف ، فيصلح ذلك الشرف سببا لتعيينهما للصلاة والعبادة ، فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثرا في فضيلة ما يقع فيهما من عبادات) ويعلق الآلوسي على ذلك

بالقول: (وهذا عندي أصفى مما تقدم) [120] يعني من حمل التسبيح على ظاهر معناه من التنزيه والتسبيح لله سبحانه ، ويشعر به ما أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس في فضل صلاة الضحى وتعين وقتها والاستدلال عليها من خلال قوله تعالى :﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [121] على ما سيأتي بيانه ، كما يشعر به ما ورد عن بعض أهل العلم في المراد بالوقتين فقد قال الحسن : أريد بهما ركعتان بكرة كانت قد فرضتا بمكة وركعتان مثلهما عشية [122] وقال قتادة : أريد بهما صلاة الغداة – أي الفجر – وصلاة العصر) [123] ، ومن الأحاديث التي وردت في فضلهما وفي تعيين وقتهما قوله ﷺ [124] : (من صلى البردين دخل الجنة) [125] زاد في رواية مسلم (يعني العصر والفجر) ، واصرح منه حديث عمارة بن روبية وفيه : (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) [126]يعني الفجر والعصر ، ورواه الشيخان بلفظ:(من صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وجبت له الجنة) [127] .. وليس في هذا من الإشكال في الحمل على الحقيقة أو المجاز ، ما في التعبير عن الوقتين بـ (طرفي النهار)، إذ (يمكن اعتبار النهار من طلوع الشمس مع صحة ما ذكروه في صلاة الطرف الأول)[128] من أن المراد بها صلاة الصبح على ما ارتضاه الحسن وقتادة والضحاك [129].

والصلاة على أي حال وأيا ما كان الأمر فيها حاصلة في الوقتين المباركين ، أما قبل فرض الصلوات الخمس فلكونها متحققة بما ذكرنا نقلا عن الحسن، أما بعد فرضيتها وجعلها في خمس فلكونها متحققة بصلاتي الضحى والعصر هذا على القول بأن طرف النهار الأول يطلق ويراد به ما بعد طلوع الشمس أو بصلاتي الفجر والعصر كما قال قتادة وكما نطقت به الأحاديث سالفة الذكر ، وذلك على القول بجعل طرف النهار مرادا به ما بعد طلوع الفجر .

3. إن فيهما تبدو مظاهر العظمة ودلائل القدرة على بديع صنع الله في خلقه ، إذ في هذين الوقتين تطالع النفس البشرية التغير الواضح في صفحة الكون من ليل إلى نهار ومن نهار إلى ليل ، وفيهما يتصل القلب بالوجود من حوله ، وهو يرى

كلما طلعت شمس يوم أو غربت ، وكلما أقبل ليل أو أدبر نهار ، يد الله تغير الظواهر والأحوال وتقلب الليل والنهار بما يدل على كمال مقلبهما وقدرته على إيجاد المعدوم الممحوق كما كان وتسويته ، وهنا وفي هذا الجو المفعم بفيض التدبر والتفكر في خلق السماوات والأرض وفي هدأة الصبح وهو يتنفس ويتفتح بالحياة ، وهدأة الغروب والكون يغمض أجفانه وينقلب البصر خاسئا وهو حسير ، حمل التسبيح بحمد الله اعترافا بفضله وعظيم امتنانه [130] ، وفي هذا المعنى يقول البيضاوي: (وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار القدرة والعظمة فيها أظهر[131] .

4. أنهما وقتان للانتقال من حال إلى حال ، بما يعني التذكير بالموت وبقيام الساعة ، فالغدوة عندها ينقلب الإنسان من النوم الذي هو كالموت ، إلى اليقظة التي هي كالحياة [132] ويتحول العالم من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية ، وإما عند الآصال فالأمر بالضد لان الإنسان ينقلب من الحياة إلى الموت ، والعالم ينقلب أن النور الخالص إلى الظلمة الخالصة وتلك هي عبارة الرازي التي يقل بعدها معقبا ، "وفي هذين الوقتين يحصل هذان النوعان من التغيير العجيب القوي القاهر ولا يقدر على مثل هذا التغيير إلا الإله الموصوف بالحكمة الباهرة والقدرة الغير متناهية"[133].

وجه دلالة التعبير بالغدو والآصال التذكير بالموت – على ما توحي به عبارته – هو انه (عند الإصباح يخرج الإنسان من شبه الموت إلى شبه الوجود وهو اليقظة، وعند العشاء يخرج الإنسان من اليقظة إلى النوم)[134] يقول البقاعي: (خص هذين الوقتين وإن كان المراد الدوام بتسمية كل من اليوم والليلة باسم جزئه ، ليذكر بالغدو : الانتشار من الموت ، وبالأصيل : السكون بالموت والرجوع إلى حال العدم فيستحضر بذلك جلال الله عز وجل فيكون ذلك حاويا على تعظيمه) [135] ، أما وجه دلالة التعبير بهما على قيام الساعة فـ (لأن ساعتيهما أثناء الطي والبعث) [136] . وعن الدلالة الظاهرة على طي الخلق وزوال الدنيا كلها والخلود إلى الراحة الجسدية بعد البعث ، وعلى انتشار الناس بعد الاستيقاظ إلى

الأمور الضرورية التي بها قوام حياتهم ، يقول البقاعي في تفسيره لقول الله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) [137] .

أي (عند قيامك من منامك وتذكرك أنه يحيي الموتى ويحشرهم إليه جميعا ، وعند انقراض نهارك وتذكرك انقراض دنياك وطي هذا العالم لأجل إيجاد يوم الفصل) [138] ، وهو في معنى ما ذكره الإمام الفخر .

5. كونهما (من الأوقات التي تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها) [139] ، وهذا أمر ملموس ويستوجب ذكره سبحانه بمجامع التسبيح وتنزيهه عن كل نقص إذ فيه ذكر أوقات التسبيح في آية الروم إشارة إلى ما فيها من التغير الذي هو منزه عنه وإلى ما يتجدد فيها من النعم ووجود الأحوال الدالة القدرة على الإبداع الدال على البعث لذا قال لافتا الكلام إلى الخطاب لأنه أشد تنبيها ودالا على الاستغراق بنزع الخافض (حين) تمسون مقدما المحو لأنه أدل على البعث الذي النزاع فيه وهو الأصل [140] .

6. كونهما المنوط بهما والمتطلع بالصلاة في زمانيهما إلى التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، لحديث جرير بن عبد الله البجلي ، الذي يقول فيه : كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر يعني ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون [141] في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ، ثم قرأ ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ [142]. يقول ابن حجر (فيه إشارة إلى قطع أسباب الغلبة المنافية للاستطاعة كالنوم والشغل ومقاومة ذلك بالاستعداد له ، وقوله (فافعلوا) أي عدم الغلبة ، وهو كناية عما ذكر من الاستعداد ، ووقع في رواية شعبة ... فلا تغفلوا عن صلاة قبل طلوع الشمس .. الحديث (قوله: قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) زاد مسلم يعني صلاة العصر والفجر ، ولابن مردويه من وجه آخر عن إسماعيل : (قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل غروبها صلاة العصر) [143] . وقال الخطابي فيما نقله عنه الحافظ : (هذا يدل

على أن الرؤية قد يرجى نيلها بالمحافظة على هاتين الصلاتين) [144] ، وذكر أهل العلم ان (وجه مناسبة ذكر هاتين الصلاتين عند ذكر الرؤية ، أن الصلاة أفضل الطاعات ، وقد ثبت لهاتين الصلاتين من الفضل على غيرهما ، ما ذكر من اجتماع الملائكة فيهما ورفع الأعمال وغير ذلك ، فهما أفضل الصلوات ، فناسب أن يجازى المحافظ عليهما بأفضل العطايا وهو النظر إلى الله تعالى ، والحكمة في اجتماعه في هاتين الصلاتين من لطف الله تعالى بعباده وإكرامه لهم ، فقد جعل اجتماع ملائكته في حال طاعة عباده لتكون شهادتهم لهم أحسن شهادة) [145] ومما يستفاد من الحديث (أن الصلاة أعلى العبادات لأنها عنها وقع السؤال والجواب ، وفيه الإشارة إلى عظم هاتين الصلاتين لكونهما تجتمع فيهما الطائفتان وفي غيرهما طائفة واحدة ، وفي الإشارة أيضا إلى شرف الوقتين المذكورين ، وقد ورد أن الرزق يقسم بعد صلاة الصبح وأن الأعمال ترفع آخر النهار فمن كان حينئذ في طاعة بورك في رزقه وفي عمله ، وهذا يترتب عليه حكمة الأمر بالمحافظة عليهما والاهتمام بهما ، وفيه تشريف هذه الأمة على غيرها ، ويستلزم تشريف نبيها على غيره وفي الإخبار بالغيوب وهذا يترتب عليه زيادة الإيمان كما فيه الإخبار بما نحن فيه من ضبط أحوالنا حتى نتيقظ ونتحفظ في الأوامر والنواهي ونفرح في هذه الأوقات بقدوم رسل ربنا وسؤال ربنا عنا ، وفيه إعلامنا بحب ملائكة الله لنا لنزداد فيهم حبا ونتقرب إلى الله بذلك ، وفيه كلام الله تعالى مع ملائكته وغير ذلك من الفوائد) [146] .

7. أنهما محل الغفلة ، وأشهر ما يقع فيه المباشرة للأعمال والاشتغال بالأمور[147] ، (فوجوب الذكر المحمول على ظاهره فيهما وجوب له في غيرهما من باب الأولى ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها في حال العذر ، غير الذكر فإنه تعالى لم يجعل له حدا ينتهي إليه ، ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله ... ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى صلاتي الصبح والعصر لأن المواظبة عليهما – لما أشار إليهما من صعوبتهما بما يعتري الإنسان في وقتيهما من الشغل –

دالا على غاية المحبة لله حاملة على المواظبة على غيرهما من الصلوات وجميع الطاعات بطريق الأولى) [148] .

وفي نظم الدرر تفسيرا لآية (قال (بالعشي) تقوية للعامل وتذكيرا للغافل ، و (الإشراق) أي في وقت ارتفاع الشمس عند انشغال الناس في الأشغال ، واشتغالهم بالمآكل والملاذ من الأقوال والأفعال ، تذكيرا لهم وترجيعا عن مألوفاتهم إلى تقديس ربهم سبحانه)[149] . وفي تفسير المنار : (خصّ هذان الوقتان بالذكر لأنهما طرفا النهار ، ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به ، كان جديرا بأن يراقبه تعالى ولا ينساه فيما بينهما ، وأهم الذكر فيهما صلاتا الفجر والعصر اللتين تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ، ويشهدان عند الله تعالى بما وجدا عليه العبد كما ورد في الصحيح)[150] .

ولا يقدح فيما ذكرته هنا نقلا عن بعض أهل العلم ، ما قال به الآلوسي وصاحب الظلال من أن الوجه في اختصاصهما بالذكر(أنهما وقتا فراغ فيكون الذكر فيهما ألصق بالقلب) [151] وأصفى، لأن محل هذا الفراغ يكون عقيب الانتهاء من الاشتغال بأمور الحياة والمباشرة للأعمال الدنيوية وقبيل البدء بها ، والعبد مطالب بذكر الله في كل حال.

8.إن مقصوده الحض على مخالفة ما كان عليه المشركون ، (فإنهم كانوا يجتمعون على عبادة الأصنام في الكعبة بكرة وعشيا ، فأمروا بالتسبيح في أوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر) [152] .

وغني عن البيان أن الحكم على أي من الأوجه السابقة ، متوقف بالدرجة الأولى على مدارسة مقامات الأحوال وسياقات الآيات على ما سيأتي بيانه ، كما ان الذهاب إلى أن الوقتين يطلقان ويراد بهما الدوام كما يقال فعله صباحاً ومساءً إذا داوم عليه ، على ما قام به كثير من المفسرين في عدد من المواضع التي ورد فيها ذكر الآنين – لا يتماشى مع القول بالتخصيص[153] ، وأقصى ما يمكن القول به أنه إذا تسنى للملائكة ملازمة التسبيح على الدوام فإن بني البشر لا يمكنهم فعل ذلك لاحتياجهم إلى الأكل والشرب وتحصيل ذلك وما شابهه من ملبوس

ومأكول ومركوب فكانت الإشارة بالتسبيح في تلك الأوقات التي إذا أتى العبد فيها بتسبيح الله كان كأنه لم يفتر ، وهو إذا نزه ربه في أول النهار وآخره فإن الله تعالى مظهره في أوله وهو دنياه وفي آخرته وهو عقباه ، وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله ﷺ (لو أن أولكم وآخركم ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم .. وكذا الأمر بالنسبة للصلاة فإن العبد إذا صلى ركعتين حسب له صرف ساعتين من التسبيح وهكذا بالنسبة لسائر الصلوات التي يحصل له بأدائها صرف سبع عشرة ساعة فما بقي له وهو سبع ساعات هو ما بين نصف الليل وثلثيه ، لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع وهذا القدر لو نامه الإنسان لكان كثيرا وإليه الإشارة بقوله:﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلا قَلِيلاً﴾ [154] وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيقول الله لملائكته عبدي صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية إذا دعيتم بقولكم ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[155] على سبيل الانحصار بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم في أعلى عليين [156] .

المبحث الثاني

التسبيح بالغدو والآصال

بين القائلين بالحقيقة والقائلين فيه بالمجاز

ذهب غير واحد من أهل التأويل إلى أن المراد بالتسبيح في الآيات التي ورد الأمر به في وقتي العشي والإبكار أو الغدو والآصال .. الصلاة ، كذا أورده الحافظ ابن كثير عن الحسن والضحاك ، حيث قالا فيما نقله عنهما :(يسبح له فيها بالغدو والآصال) يعني : الصلاة [157] وبنحوه روى (سعيد بن جبير عن ابن عباس كل

تسبيح في القرآن هو الصلاة) [158] ، كما قال به سعيد بن المسيب ومجاهد وقتادة [159] .

وإطلاقه عليها من إطلاق اللازم على الملزوم فهو كناية عنها ، أو هو من إطلاق الجزء على الكل ، فنوع مجازه مرسل وعلاقته الجزئية ، إذ التسبيح جزء من الصلاة ، والنكتة في ذلك كونها مشتملة على تسبيح الله وتنزيهه ، أو الزمانية ووجهه أن " الزمان كثيرا ما يطلق ويراد به ما يقع فيه كما يقال : صلى الصبح والمراد صلاته ، وقد يعكس فيراد الصلاة زمانها نحو : قربت الصلاة أي وقتها، وقد يراد بها مكانها كما قيل في قوله تعالى:﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾[160] أن المراد بالصلاة : المساجد) [161] .

وفي تحديد تلك الصلوات المرادة في هذين الوقتين المباركين " أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنهما عبارة عن صلاتي الصبح والعصر .. وخُصّا بالذكر لشرفهما "[162] كذا أخرجه الحافظ ابن كثير عن ابن عباس قائلا: " يعني بالغدو : صلاة الغداة ، ويعني بالآصال: صلاة العصر . وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحبَّ أن يَذكرهما وأن يذكر بهما عباده"[163] ، وباعتبارهما طرفي النهار ، فما يقع بينهما يجبه الصلاة فيهما .

وفي رواية أخرى لابن عباس أن المراد من " التسبيح بكرة : صلاة الفجر والتسبيح أصيلا : صلاة العشاء " [164] ، كما أورد الآلوسي عن قتادة نحوا مما روي عن ابن عباس إلى أنه قال : " أشار بهذين الوقتين إلى صلاة الغداء وصلاة العصر ، وهو أظهر مما روي عن الحبر) [165] يقصد به في روايته القائلة بأنهما صلاتا الفجر والعشاء .

وأبعد من جنح إلى أن المراد بالأصيل : الظهر والعصر ، وبالعشي : المغرب ، بزعم أن المراد بذكرهما شمول ساعات النهار أو سائر أوقات اليوم والليلة ، وأن ما يقرب من الشيء يجوز أن يطلق عليه اسمه [166] ، واشد منه بعداً : الزعم بأن الأصيل : صلاة العشاء ، لما ذكرنا وكذا الزعم بأن " الإبكار عبارة عن أول النهار

إلى النصف ، والعشي عبارة عن النصف إلى آخر النهار فيدخل فيه كل الأوقات"[167] إذ القول بالليل والتي لا يخلو – على ما سنذكر – عن كدر.

وأجاز طائفة من أهل العلم جعل المأمور به من التسبيح : قول (سبحان الله) بقصد إجلاله تعالى وتنزيهه – قولاً واعتقاداً – عن كل عيب فيكون الحمل فيه على الحقيقة ، وإنما خَص التسبيح من جملة الذكر وأنواعه لأنه يعني " التنزيه عما لا يجوز على الله من النقائص فهو من أكمل الذكر لاشتماله على جوامع الثناء والتمجيد ، ولأن في التسبيح إيماء إلى التبرؤ مما يقوله أهل الكفر والنفاق في حق الله وفي حق نبيه ﷺ والمؤمنين بدعوته ، فيكون في معنى قول الله تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ [168] فإن كلمة (سبحان الله) يكثر أن تقال في مقام التبرؤ من نسبة ما لا يليق كقول النبي ﷺ : (سبحان الله ! ان المؤمن لا ينجس) وقول هند بنت عتبة حين أخذ ﷺ على النساء البيعة (أن لا يزنين) : سبحان الله أو تزني الحرة ؟ [169] .

قال أبو حيان : الظاهر أن قوله تعالى : (وسبح بحمد ربك) أمر بالتسبيح مقرونا بالحمد ، وحينئذ إما أن يراد اللفظ أي : قل (سبحان الله والحمد لله) ، أو يراد المعنى : أي نزه الله سبحانه عن السوء وأثن ليه بالجميل ، وفي خبر ذكره ابن عطية : (من سبح عند غروب الشمس سبعين تسبيحه غربت بذنوبه، وقال أبو مسلم : لا يبعد حمل ذلك على التنزيه والإجلال .

والمعنى : اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات ، وعلى ذلك حمله العز بن عبد السلام ، واختار الإمام الرازي حمل التسبيح على التنزيه من الشرك وتابعه في ذلك الآلوسي ، قال الفخر : إنه أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره ، يعني في الآيات التي جاء فيها الأمر بالصبر قبيل الأمر بالتسبيح كما في قوله: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل ﴾ [170]وقوله: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [171] وقوله : لأن سبحانه صبره أولا على ما يقولون من التكذيب

وإظهار الكفر والشرك ، والذي يليق بذلك أن يؤمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون مظهرا لذلك وداعيا إليه .

واعترض بأنه لا وجه حينئذ لتخصيص هذه الأوقات بالذكر، وأجيب أن المراد بذكرها ، الدلالة على الدوام كما في قوله تعالى : ﴿ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [172] مع أن لبعض الأوقات مزية لأمر لا يعلمه إلا الله تعالى ورد بأنه يأباه (من) التبعيضية في قوله : في آية طه (ومن آناء الليل) على ان هذه الدلالة يكفيها أن يقال : قبل طلوع الشمس وبعده لتناوله الليل والنهار ، فالزيادة تدل على أن المراد خصوصية الوقت .. وعورض ما قاله الإمام – للمرة الثانية – بأن الأنسب بالأمر بالصبر ، الأمر بالصلاة ليكون ذلك إرشادا لما تضمنه قوله تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة .. البقرة : 45) ، وأيضا الأمر الآتي أوفق بحمل الأمر بالتسبيح على الأمر بالصلاة[173] .

وحمل الأمر بالتسبيح على أي من الوجهين السابقين ، بهذا مما التبست فيهما الطرائق ، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة هي أسلم وأقرب إلى فهم المعنى المراد ، من أن نكل أمر الحسم أو الترجيح في هذا الشأن إلى سياقات الآيات وقرائن أحوالها ، فهذان – في تقديري – كافيان وحدهما وكفيلان بمعرفة ما إذا كان المراد من التسبيح ظاهره أو المراد منه التجوز فيكون بمعنى الصلاة . إذ من الإجحاف أن نحمل كل الآيات الآمرة بالتسبيح في ذينك الوقتين على معنى واحد، أو نجعلها – على تعددها وتنوع سياقاتها – تسير على وتيرة واحدة .

فهناك من الآيات الآتية على هذا النمط ما ينصب حديثها حول مواقيت الصلاة ، ولاسيما ما ذكر فيها الوقتان بلفظ (الطرف) الذي يعني أول النهار أو آخره ، سواء ما جاء منه على صيغة التثنية كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ﴾ [174] ، أو بأسلوب الجمع كما في قوله عز وجل: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [175].. وكذا ما ذكرا فيه بلفظ (قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) كما في الآية سالفة الذكر ونظيرها في قوله سبحانه

: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ [176] .. أو ما كان نصا في سرد أوقات الصلاة الأخرى مما هو في معنى ما ذكر كما الحال في قوله سبحانه : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [177].. فمثل هذا يجمل حمل الأمر بالتسبيح فيه على معنى الصلاة إذ ليس ثمة ما هو أدل على تحديد مواقيت الصلاة على وجه التقصي كتابا وسنة ، من حركة الشمس بكرة وأصيلاً وما يحدث إبان دوران الأرض حولها وما يطرأ على الأرض إثر غروبها من تغيرات كونية وتعاقب الليل والنهار .

ما يومئ إلى ما كان في شرائع من قبلنا من صلاة كانت لهم على نحو معين في أول النهار وقبيل انتهائه ، وهذا ضرب آخر من التسبيح ذكره الفيروز أبادي قائلا في شأنه بعد أن عدد ما ورد في حق الملائكة وما جاء في حق نبينا محمد ﷺ (وأما ... التي للأنبياء فالأولى لزكريا ، علامة على ولادة يحيى :﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [178] ، 2والثاني في وصيته لقوم على محافظة وظيفة التسبيح : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [179] ، والثالث (في موافقة الجبال والظباء والحيتان والطير لداود في التسبيح :﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ [180] ،[181] وهذا كسابقه لا معنى له إلا بالحمل على المجاز لما سيأتي من ورود آثار تدل على مشروعية صلاة كانت لهم في هذين الوقتين تقتضي بتأدية ركعتين أو النهار – هما أشبه بصلاة الضحى في شريعتنا الغراء – وركعتين قبل انتهائه.

وهناك ما أخبرت الآيات بتسبيحه في الوقتين المباركين بما لا يمكن لنا فهمه ولا يتأتى لنا إدراكه ، من نحو ذاك الذي يحدث مما لا يتصور أن يقع منه كلام نعيه أو صلاة أو سجود نبصره ، من الجمادات والحادثات التي يقول سبحانه في شأنها :﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ [182] ، ويقول : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [183] فإن هذا وأضرابه مع دخوله في عموم قول الله تعالى :

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [184] لا يتأتى منه – في حدود بشريتنا وفي نطاق معرفتنا – قول ولا يصدر منه فعل إلا ما كان منه على سبيل المعجزة أو الكرامة.

فالأليق بمثل هذا أن يحمل على معنى الانقياد والتسخير الذي يصدر عن طواعية[185] على سبيل الاستعارة بالكناية ، أو على وجه الحقيقة على أن يخول الأمر فيه لخالقه فهو سبحانه العليم بأسرار خلقه .

وهناك من الآي ما سبق الأمر فيه بالتسبيح في الوقتين ، الأمر بالذكر ، فناسب – لكون التسبيح واحدا من أنواعه وفردا من جملته – أن يجعل من قبيل عطف الخاص على العام ، وبالتالي فيكون معنى التسبيح فيه على ظاهره ، ولك أن تتأمل مصداق ذلك في قوله سبحانه :﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [186] وقوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [187] ... كما يفضل عند الاقتصار على الذكر في نفس الوقتين كما هو الشأن في نحو قوله تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا﴾ [188] . أن يحمل المطلق فيه على المقيد .

فالذي يطمئن إليه الباحث ، أن مراعاة هذه الضوابط ووضعها في الاعتبار وملاحظتها عند تحديد المراد من التسبيح أو الذكر في وقتي الغدو والآصال ، هو مما يساعد على فهم ما يهدف إليه النص القرآني ، ويكون من التكلف والجور التسوية بين النصوص وجعلها على نحو ما فعل جل المفسرين على نمط واحد ، إما أن يراد منها التنزيه وحمل المعنى على ظاهره بقول (سبحان الله) أو يراد منها الصلاة .. هكذا دون ما إبصار لمواقعها ولا إنعام نظر فيما يعين من القرائن على حملها على الوجه الصحيح ، وينشأ عن ذلك تحميل النصوص ما لا تحتمل أو صرفها عما يدل السياق بقرائن الأحوال على تحديد مراد الله منها .

ولنبحر في أعماق تيك الآيات ، كما يتسنى لنا – من خلال الوقوف على المعاني المقصودة من التسبيح – التعرف على وجهها الصحيح ، وما إذا كان المراد

بالتسبيح فيها ظاهره الموضوع لها في اصطلاح التخاطب ، أم المراد به بمعونة السياق وقرائن الأحوال التجوز ، أم أن الأمر فيه ، له اعتلاق بهذا وذاك فيكون على ما قال ابن عاشور في المقدمة التاسعة : (فمختلف المحامل التي تسمح بها كلمات القرآن وتراكيبه وإعرابه ودلالته ، من اشتراك وحقيقة ومجاز ، وصريح كناية ، وبديع ووصل ووقف ، إذا لم تفض إلى خلاف المقصود من السياق ، يجب حمل الكلام على جميعها) [189] . ولتكن بداية حديثنا بما يحسن استخدامه من التسبيح لغير ما وضع له في اصطلاح التخاطب .

الخاتمة

وبعد فقد آن لنا أن نحط الرحال أعقاب هذه الرحلة الميمونة أن نعطي بعض النتائج التي تنورنا بنهاية هذا البحث المتواضع ونسأل الله تعالى القبول :

أولاً : تم التعرف حول الدقائق واللطائف المكادة من التغيير عن هذين الوقتين المباركين لطرف النهار ، (العشي والإبكار) أو (الغدو والآصال) أو (الغداة والعشي) .

ثانياً : عند القراءة المستفيضة تبين أن هذين الوقتين هو ما يستأهل التأمل والتدبر ويستحق المزيد من أعمال الذهن وكد الفكر في ذلك الوقت .

ثالثاً : على كل مسلم أن يلتفت إلى هذين الوقتين المباركين لما فيه من الأجر والثواب الجزيل

وأن يتهيأ إلى هذين الوقتين لما فيه من خير وبركة .

رابعاً : يجب ملاحظة هذين الوقتين الذي تكلم عنها العلماء (رحمهم الله) هي ليست مجرد مترادفات أو متقابلات جيء بها لمجرد التعبير عن وقتين اعتادهما الناس وإنما هي عكس فلهذا أهتم بهما العلماء (رحمهم الله) وأفادوا بها الناس الذين لا يعرفون قدر هذين الوقتين .

خامساً : إن مجال البحث في التنزيل فسيح ومتسع ويحتاج إلى مزيد من استجلاء الدقائق والحقائق وليس في أفضل حياة أي باحث منصف بل ولا حياة في أهل الحق جميعاً للوصول إلى الحقيقة ولاسيما لو كانت تلك الحقيقة تمسي كتاب الله عز وجل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

1- **أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ط3 ، لسنة 1985 الهيئة العامة للكتاب .**

2- **أضواء على متشابهات القرآن للشيخ خليل ياسين ، دار مكتبة الهلال .**

3- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، ط1 ، دار المنار لسنة 1417هـ .**

4- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي . ت عبد الرزاق المهدي ، دار الكتب العلمية 1417 هـ .**

5- البحر المحيط لأبي حيان ، ط2 ، دار الفكر لسنة 1938 .
6- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لبرهان الدين أبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني ، السيد الجميلي ملحق بمجلة الأزهر عدد ذي الحجة 1414 هـ .
7- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ، ت عبد العليم الطحاوي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ط 1421 .
8- تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي مسعود محمد العمادي ط4 ، دار إحياء التراث 1414 .
9- تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات النسفي ط ، هيئة المطابع الأميرية لسنة 1417 .
10- تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ، ط2 ، دار المعرفة بيروت .
11- تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، ط 2، دار مصر للطباعة .
12- التفسير الكبير بمفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي ، ط1 ، دار الغد العربي لسنة 1412
13- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف الجامعة – القاهرة ، ط1 ، 1965 .
14- حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي لشهاب الدين الخفاجي علي البيضاوي ، ت عبد الرزاق المهدي ، ط1 ، دار الكتب العلية لسنة 1417 .
15- المستقصي في أمثال العرب لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط2 ، 1987 .

16- دراسات لأسلوب القرآن لمحمد عبد الخالق عظيمة ، ط حسان .
17- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت ، لسنة 1416 .
18- روح المعاني للآلوسي ، ت محمد حسين العرب ، دار الفكر 1417.
19- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ليحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت

الهوامش

(1) إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي : 188 – 189 .
(2) سورة آل عمران ، آية : 41 .
(3) سورة مريم ، آية : 11 .
(4) سورة مريم ، آية : 62.
(5) سورة غافر ، آية : 55 .
(6) سورة أنعام ، آية : 52 .
(7) سورة الكهف ، آية :28 .
(8) سورة غافر ، آية :46 .
(9) سورة ص ، آية :18 .

(10) سورة الروم ، الآيتان : 17 – 18 .

(11) ينظر لسان العرب : 4 / 2959 .

(12) أساس البلاغة : 2 / 118 ..

(13) المستقصى في أمثال العرب 1/ 94 ، وثمار القلوب 1/ 355 .

(14) سورة الزخرف ، آية : 36 .

(15) ينظر لسان العرب 4 / 2960 .

(16) ينظر السابق .

(17) السابق وينظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي 4 / 69 .

(18) المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني ص 335 ، وينظر التحرير والتنوير 7 / 247 مجلد 4 .

(19) سورة الأحزاب ، الآيتان : 41– 42 .

(20) سورة الرعد ، آية :15 .

(21) سورة هود ، آية : 114 .

(22) التحرير 12 / 179 من الجلد 6 بتصرف .

(23) البصائر 3 / 503 وينظر الكشاف 2 / 296 .

(24) البصائر 3 / 503 .

(25) ينظر الكشاف 4 / 200 ، وتفسير البيضاوي بحاشية الشهاب 6 / 256 ، والآلوسي 12 / 234 مجلد 7 .

(26) ومن جعله من طلوع الشمس ، عد الصبح كالمغرب طرف مجازي ، وجعله حقيقة فيهما ، هو من زخرف القول لما ذكرنا من أدلة .

(27) مفاتح الغيب 8 / 631 .

(28) سورة طه ، آية : 130 .

(29) سورة ق ، آية : 39 .

(30) مفاتح الغيب 8 / 631 بتصرف .

(31) مصدر السابق

(32) الآوسي : 12 / 234 ، مجلد 7 ، وينظر : الوجوه والنظائر للدامغاني :49/2 .

(33) سورة ص ، آية : 18 .

(34) الكشاف : 3 / 64 .

(35) لسان العرب : 1 / 89 .

(36) وحاصل ما ذكره وغيره في (آصال) إنها جمع (أصل) وأصل جمع أصيل فهي بذلك جمع الجمع ، أو هي جمع أصيل كيمين وأيمان ، أي هي جمع أصل مفردا كعنق وأعناق وهذه تجمع أيضا على أصلان .

(37) لسان العرب : 1 / 89 وينظر الكشاف : 3 / 68 ومفاتيح الغيب : 11 / 594 ونظم الدرر 3/ 179 ، والتحرير 242/9 ، مجلد 5 و مفردات الراغب ص 19 والوابل الصيب ص 192 والالوسي 224/9 ، مجلد 6 ، 258/18 ، مجلد 10 .

(38) وأغرب من قال بأن معنى العشي هو ما كان وقتا لصلاة الظهر قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي وابن عطية ، لـ (أن جعل الظهر من الطرف الثاني خفاء ، وإنما الظهر نصف النهار ، والنصف – على حد قول صاحب روح المعاني – لا يسمى طرفا إلا بمجاز بعيد (تفسير الآلوسي : 12 234 من المجلد 7) ، وأضيف بأن لو كان صحيحا لما كان هناك معنى للعطف في قوله تعالى (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ) [الروم : 18] إذ يصير من عطف الشيء على نفسه ، وهو مما لا يسوغ القول به ، وأغرب منه للسبب ذاته ما ذكرنا من حدة من الزوال إلى الصباح – كذا فعل الراغب في المفردات (ص : 335) دون أن يذكر غيره ، وابن عاشور في التحرير – 7 / 247 من المجلد 4 – الذي ناقض نفسه فذكر في قوله تعالى (يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) : (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ [ص: 31] أنه ما بعد العصر إلى الغروب (ينظر التحرير : 23 / 228 ، مجلد 11 ، 23 / 254 مجلد 11) .

(39) وفي حال جعل غدو مصدرا لا جمعا ، يقدر معه مضاف مجموع أي أوقات الغدو ، ليطابق قوله الآصال كذا في روح المعاني : 9 / 224 مجلد 6 .

(40) اللسان : 6 / 3220 بتصرف وينظر : تمييز ذوي البصائر : 4 / 122 ، والرازي : 7 / 424 والآلسي : 9 / 224 مجلد 6 .

(41) وعليه فإذا قوبل بالعشي كان على تقدير : وقت الإبكار ، واللفظان (بكرة وعشيا) هما على أي حال معربان غير منصرفين ، ويطلقان ظرفا وعلما للجنسية على وقتيهما سواء قصد تعيينهما ليوم معين أو لم يقصد ، ويجوز تنوينها على الحالين اتفاقا (ينظر البحر : 453/2 ، ودراسات لأسلوب القرآن ، محمد عبد الخالق عظيمة : 9 / 727) .

(42) اللسان : 1 / 332 ، وينظر : مفاتيح الغيب : 4 / 205 .

(43) سورة القمر ، آية : 38 .

(44) الكشاف : 4 / 401 .

(45) المفردات : 57 .

(46) سورة ص ، آية : 18 .

(47) تمييز ذوي البصائر : 3 / 311 .

(48) اللسان : 4 / 2245 .

(49) سورة الحجر ، آية : 73 .

(50) سورة الشعراء ، آية : 60 .

(51) اللسان : 4 / 2245 .

(52) سورة مريم ، آية : 62 .

(53) تفسير الكشاف : 2 / 515 – 516 . وينظر الرازي : 9 / 487 ، وحاشية الشهاب للبيضاوي : 6 / 292 .

(54) سورة أنعام ، آية : 52 .

(55) التحرير : 7 / 247 مجلد 4 .

(56) الآلوسي : 7 / 232 مجلد 5 .

(57) اللسان : 4 / 2962 .

(58) صحيح البخاري 6 / 2732 ، 70 _ 80 ، كتاب التوحيد ، صحيح مسلم ، 4 / 2176 ، 2829 ، باب أحلال الدخول على أهل الجنة .

(59) سورة مريم ، آية : 62 .

(60) وكان العرب يسمون الأكل مرة واحدة في اليوم والليلة (الوجبة) باعتبار أن أكلها يوجب زهادة ، وكان إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبهم ذلك ويسمون ما عداهما (الرغبة) أي في كثرة الأكل ، فأخبرهم سبحانه أن لهم في الجنة هذه الحالة التي تعجبهم (ينظر أضواء على متشابهات القرآن للشيخ خليل ياسين 2 / 10) .

(61) تفسير البيضاوي : 6 / 292 .

(62) اللسان : 4 / 2962 .

(63) مصدر السابق

(64) السابق بتصرف

(65) ينظر حاشية الشهاب : 9 / 363 .

(66) سورة غافر ، آية : 55 .

(67) مفاتيح الغيب : 13 / 596 .

(68) سورة مريم ، آية : 62 .

(69) ولعل هذا ما عناه ابن منظور بقوله : (إنما أراد لهم رزقهم في مقدار ما بين الغداة والعشي) .

(70) والأليق منه حمل المعنى على الحقيقة ، لإفادة التوسط بين الزهادة والرغابة لما سبق ذكره .

(71) التحرير والتنوير : 16 / 138 مجلد 8 .

(72) سورة الأعراف ، آية : 205 .

(73) سورة الأحزاب ، الآيتان :41– 42 .

(74) سورة الرعد ، آية : 15 .

(75) سورة ص ، آية : 18 .

(76) روح المعاني : 23 / 356 من المجلد 13 بتصرف .

(77) سورة آل عمران ، آية : 41 .

(78) سورة غافر ، آية : 55.

(79) سورة ص ، آية : 18 .

(80) وسيأتي ما يفيد أن طرف النهار الأول يطلق ويراد به أحد معنيين : ما بعد طلوع الفجر وما بعد طلوع الشمس ، فعلى من التزم جعل أول النهار من طلوع الفجر جعل ما بعد طلوع الشمس مجازا فيه والعكس بالعكس .

(81) وذلك قوله سبحانه (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الأنعام 90 .

(82) إغاثة اللهفان : 2 / 319 .

(83) هداية الحيارى : 45 ، وينظر تفسير ابن كثير : 1 / 202– 355 .

(84) يعني قوله تعالى:(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) (غافر:46 – 51) .

(85) نظم الدرر : 6 / 525 .

(86) سورة ص ، آية :17 .

(87) سورة سبأ ، آية :10 .

(88) سورة ص ، آية :19 .

(89) السابق : 6 / 370 .

(90) سورة الروم ، آية : 17 .

(91) سورة الأحزاب ، آية : 42 .

(92) سورة الروم ، الآيات : 11–16 .

(93) سورة الروم ، آية :19 .

(94) الرازي : 12 / 452

(95) ينظر البحر المحيط : الآية 17 – 18 من سورة الروم .

(96) الآلوسي:21 / 45 مجلد 12 ، وينظر : حاشية الشهاب على البيضاوي : 7 / 379 .

(97) كما كانوا يؤرخون بالليالي ويبتدئون الشهر بالليلة الأولى التي بعد طلوع الهلال ، وهو ما أقرهم الإسلام عليه واستمر عليه الحال .

(98) سورة سبأ ، آية : 18.

(99) التحرير : 21 / 66 مجلد 10 ، 26 / 327 مجلد 12 .

(100)تفسير أبي السعود : 7 / 55 مجلد 4 .

(101) سورة الروم ، آية 11 .

(102) التحرير : 21 / 66 مجلد 10 .

(103) الآلوسي : 21 / 45 مجلد 12 .

(104) سورة الروم ، آية : 17 .

(105) تفسير البيضاوي : 7 / 380 .

(106) حاشية الشهاب : 7 / 380 ، والآلوسي : 21 / 45 مجلد 12 .

(107) المصدران السابقان .

(108) سورة مريم ، آية : 62 .

(109) سورة مريم ، آية : 11 .

(110) سورة الأحزاب ، الآيتان : 41– 42 .

(111) سورة الأنبياء ، الآيتان : 102– 103.

(112) تفسير أبي السعود : 5 / 258 مجلد 3 .

(113) سورة الأنفال ، آية :26 .

(114) ينظر الطراز للعلوي : 2 / 73 .

(115) دلائل الإعجاز تحقيق : محمود شاكر : ص 15 .

(116) تفسير الآلوسي:61/22 مجلد 12،وينظر:9/ 224 مجلد 6 ، والبيضاوي : 7 / 495.

(117) أخرجه البخاري 555 ، 7429 ، 7486 ، 7223 ،ومسلم 632،والنسائي:240/1 –241 ،وأحمد : 486/2 ، 344،257،وابن حبان:1737،ومالك:170/1،والبغوي : 380 .

(118) حاشية الشهاب : 7 / 495 .

(119) فتح الباري : 2 / 26 .

(120) الآلوسي : 23 / 257 مجلد 13 .

(121) سورة ص ، آية : 18 .

(122) ينظر الآلوسي : 24 / 118 ، مجلد 13 .

(123) المصدر السابق .

(124) فيما أخرجه البخاري 574 ، ومسلم : 635 ، وأحمد:4 / 80 ،والدارمي:1 / 331 ، وابن حبان 1739 .

(125) قال الخطابي فيما نقله عن ابن حجر سميتا بردين لأنهما تصليان في بردي النهار وهما طرفاه حين يطيب الهواء ويذهب الحر (ينظر فتح الباري) 2 / 42 .

(126) أخرجه مسلم : 634 ، وأحمد : 4 / 261 ، وأبوا داود : 427 ، وابن أبي شيبة : 2 / 386 ، وابن حبان : 1738 .

(127) أخرجه الطبراني في الأوسط كما في المجمع : 1 / 318 برقم 1789 من حديث عمارة بن روبية أيضا .

(128) الآلوسي : 12 / 234 مجلد 7

(129) ينظر السابق .

(130) ينظر الظلال : 3 / 1427 ، 4 / 2357 ، ونظم الدرر : 6 / 525 .

(131) تفسير البيضاوي : 7 / 380 .

(132) كما جاء في حديث حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما من أنه ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه قال : (باسمك الله أحيا وأموت ، وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) والنشور هو الحياة بعد الموت . والحديث رواه البخاري : 11 / 96 ، 97 ، 111 وأبو داود 5049 والترمذي 3413 .

(133) تفسير الرازي : 7 / 425 ، وينظر : 10 / 295 ، والآلوسي : 9 / 224 مجلد 6 .

(134) الرازي : 12 / 452 .
(135) نظم الدرر : 3 / 179 .
(136) نظم الدرر : 5 / 57 .
(137) سورة الإنسان ، الآية : 25 .
(138) السابق : 8 / 276 بتصرف ، وينظر : 6 / 114 ، 7 / 266 .
(139) الآلوسي : 21 / 45 مجلد 12 .
(140) ينظر نظم الدرر : 5 / 609 .
(141) أي لا يحدث لكم ضيم والمراد نفي الازدحام .
(142) سورة ق ، آية : 39 .
(143) فتح الباري : 2 / 26 .
(144) السابق : 2 / 27 .
(145) السابق : 2 / 27 ، 28 .
(146) السابق : 2 / 30 بتصرف .
(147) ينظر تفسير الآلوسي:177/15 مجلد 258/18/9 مجلد10، والشهاب 5 / 166 .
(148) نظم الدرر : 6 / 114–115 بتصرف .
(149) نظم الدرر : 6 / 370 بتصرف .
(150) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا : 9 / 557 .
(151) الآلوسي : 9 / 224 مجلد 6 ، وينظر الظلال : 5 / 3087 .
(152) الرازي : 14 / 319 .
(153) لتنافيهما ، وهذا من البداهة بمكان .
(154)سورة المزمل ، ألآية : 2 .

(155) سورة البقرة ، ألآية :30 .
(156) ينظر الرازي : 12 / 450 ، 601 .
(157) تفسير ابن كثير : 3 / 303 .
(158) السابق وينظر روح المعاني للآلوسي : 18 / 258 مجلد 10 .
(159) ابن كثير : 2 / 137 .
(160) سورة النساء ، ألآية :43 .
(161) روح المعاني : 7 / 232 مجلد 5 ، وينظر حاشية الشهاب : 4 / 103 .
(162) مصدر السابق .
(163) تفسير ابن كثير : 3 / 303 ، وينظر فتح القدير للشوكاني : 4 / 37 .
(164) روح المعاني : 22 / 61 مجلد 12 .
(165) مصدر السابق .
(166) ينظر تفسير الرازي : 16 / 88 ، 8 / 631 .
(167) تفسير الرازي : 13 / 570 .
(168) سورة النور ، آية : 16 .

(169) ينظر التحرير والتنوير : 22 / 48 مجلد 11 ، ومجمع الزوائد ، 6 / 42 ، التخليص الكبير في تخريج الاحاديث ، 4 /52 _ 53 .
(170) سورة طه ، آية : 130 .
(171) سورة ق ، آية : 39 .
(172) سورة أنعام ، آية : 52 . وسورة الكهف ، الآية : 28 .
(173) روح المعاني : 16 / 412 ، 313 ، مجلد 9 بتصرف ، وينظر : 21 / 44 مجلد 12 ، ومفاتيح الغيب : 12 / 447 .
(174) سورة هود ، الآية : 114 .
(175) سورة طه ، الآية : 130 .
(176) سورة ق ، الآية : 39 .
(177) سورة الروم ، الآيات : 17– 18 .
(178) سورة أل عمران ، الآية : 41 .
(179) سورة مريم ، الآية : 11 .
(180) سورة ص ، الآية :18 .
(181) بصائر ذوي التمييز : 2 / 287 .
(182) سورة الرعد ، الآية : 15 .
(183) سورة ص ، الآية :18 .
(184) سورة الإسراء ، الآية : 44 .
(185) ليتوافق مع قول الله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) فصلت : 11 .
(186) سورة النور ، الآية :36 .
(187) سورة الأحزاب ، الآيات : 41–42 .
(188) سورة الإنسان ، الآيات : 25 –26 .
(189) ينظر المقدمة التاسعة للطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير : 1 / 97 .